الحركة الحجاجية للكلمة النبوية
أحاديث الترغيب أنموذجا

سلطان دخيل اللّه العوفي

الحمد لله وحده، والصّلاة والسّلام على من لا نبي بعده وبعد:

يتجه هذا البحث إلى الكشف عن الحركة الحجاجية للكلمة النبوية، "والمقصود بحركة الكلمة مزاحمتها غيرها من الكلمات اللاتي هن من جدولها المعجمي(مرادفاتها مثلا إن صحت مقولة الترادف)، أو هن من غير جدولها المعجمي ... فينشأ بينهن تنافس وتدب في صفوفهن حركة من أجل أن تظفر إحداهن بمكان لها في الملفوظ عوضا عن سائرهن، تتحقق فيه وتستبد به وتقصيهن عنه"١

ومما تجدر الإشارة إليه، أن المقام يساعد أحد هذه الكلمات المتزاحمة، من أجل الظفر بمكان لها في الملفوظ، وذلك لأن المقام يستدعيها أكثر مما يستدعي غيرها، كما أن هدف إقناع المتكلم يقتضيها دون غيرها، ومن هنا جاءت تسمية هذه الحركة ب"حركة الكلمة الحجاجية"٢.

وفضلا عن دور المقام في عملية الاستدعاء، فإن حركة الكلمة تخضع إلى العلاقة بين اللفظ والمعنى، من خلال قانون المناسبة، الأمر الذي يجعل اللفظ متآلفا مع المعنى المراد، وهو "أن تكون الألفاظ لائقة بالمعنى المقصود ومناسبة له، فإذا كان المعنى فخما كان اللفظ الموضوع له جزلا، وإذا كان المعنى رقيقا كان اللفظ رقيقا، فيطابقه في كل أحواله، وهما إذا خرجا على هذا المخرج وتلاءما هذه الملائمة وقعا من البلاغة أحسن موقع، وتآلفا أحسن شكل وانتظما في أوفق نظام"٣

وعلى هذا الأساس، فإن الاستدعاء للفظة دون أخرى، يكون عن قصد ووعي وإدراك من قبل المتكلم، والقصد هنا هو "التعمد في اختيار لفظ معين مراعاة لمقام مخصوص"٤، وانطلاقا من مقتضاها المعجمي" الذي يشكل محتواه، فيما نراه ملفوظا ضمنيا يقبع تحت المحتوى المنطوق"٥

ويندرج هذا المفهوم ضمن مصطلح الاختيار والتأليف، وهو من المصطلحات التي أظهرتها الدراسات الأسلوبية، وهو حسب مفاهيمها : العملية التي يقوم بها المتكلم عندما يختار لفظة من بين مجموعة الألفاظ الموجودة في معجمه، والتي لها طواعية الاستبدال فيما بينها٦، ثم رصف تلك الألفاظ المختارة من خلال عملية النظم والتأليف فيما بينها.

وهو من المصطلحات التي لها جذور في التراث، فقد سمى القدماء ظاهرة إحلال كلمة بعينها دون أخرى ترادفها تتكيتا٧، وهو على حد قول ابن أبي الإصبع "أن يقصد المتكلم إلى شيء بالذكر دون أشياء كلها يسد مسده، لولا نكتة في ذلك الشيء المقصود ترجح اختصاصه بالذكر دون ما يسد مسده، ولولا تلك النكتة التي انفرد بها لكان القصد إليه دون غيره خطأ ظاهراً عند أهل النقد"٨

ويشير ابن الأثير إلى هذا المفهوم، بأن مؤلف الكلام بحاجة إلى معرفة عدة أسماء لما يقع استعماله في النظم والنثر، ليجد -إذا ضاق به موضع في كلامه بإيراد بعض الألفاظ سعة فيه- العدول عنه إلى غيره مما هو في معناه٩

ولاشك بأن المعجم لأي متكلم يمثل "المعين الصامت الذي يغترف منه المتكلم كلماته حسب اختياره؛ ليكوّن منها ألفاظا داخل جمل، وجملا داخل أنسقة معينة، وذلك وفق قوانين وأنظمة نحوية"١٠ تتلاءم مع مقاصد المتكلم وتتناسب مع غاياته وأهدافه.

ويمكن الإشارة في هذا السياق، أن عملية الاختيار ترتبط بذات المبدع وما يتميز به من خصائص وصفات ذهنية تتعلق بطبعه وأخرى مكتسبة تتعلق بما يمتلكه من ثروة لغوية ؛ لأن "عملية الاختيار للمفردات وما فيها من طبيعة استبدالية تتيح للمبدع، أن ينتقي ويختار

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

ويفضل دالا على آخر لأسباب كثيرة"١١

وعليه، فإن الاختيار في عملية الحركة الحجاجية للكلمة يخضع لقانون المناسبة، وهو قانون عابر للثقافات والأزمنة، نصادفه في البلاغات القديمة والحديثة، ذلك بأن نجاعة الخطاب ونجاحه يقومان على اختيار الحجج والصيغ المناسبة لها، فمن المهم أن يكون الملفوظ معجما وتركيبا، وهما مجال الاختيار، ملائما لموضوع الخطاب وظروفه، ولما درج عليه السامعون وألفوه١٢.

ومما ينبغي التأكيد عليه بأن تحديد هدف الخطاب في ذهن المتكلم ينعكس في عملية الاختيار، فالأهداف تتنوع وتتعدد أنماطها فمنها ما هو إقناعي ومنها ما هو إمتاعي، لذا فإن استحضار الهدف في ذهن المتكلم أمر ضروري؛ لتوجيه عملية الاختيار١٣، وذلك على أساس أن "اللغة عبارة عن قائمة هائلة من الإمكانات في التعبير"١٤

والبحث في أصول الاختيار من جوهر البلاغة، وقد أشار عبدالقاهر الجرجاني إلى فضيلة النظر في محاسن القول والاستدلال على تلك المحاسن والتعليل عليها، فيقول: "وجملة ما أردت أن أبينه لك أن لابد لكل كلام تستحسنه ولفظ تستجديه من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة وعلة معقولة وأن يكون لنا إلى العبارة عن ذلك سبيل وعلى صحة ما ادعيناه من ذلك دليل وهو باب من العلم إن أنت فتحته اطلعت منه على فوائد جليلة ومعان شريفة ورأيت له أثرا في الدين عظيما"١٥

ويشيد ابن القيم في التفاتة لطيفة له عن أهمية البحث في باب مناسبة اللفظ للمعنى في الكلام وما تضفيه من قيمة تفيد الباحث والدارس في هذا الباب، يقول: "ومثل هذه المعاني يستدعي لطافة ذهن ورقة طبع ولا تتأتى من غلظ القلوب والرضى بأوائل مسائل النحو والتصريف دون تأملها وتدبرها، والنظر إلى حكمة الواضع ومطالعة ما في هذه اللغة الباهرة من الأسرار التي تدق على أكثر العقول، وهذا باب ينبه الفاضل على ما وراءه"١٦

كما أن مبدأ التأليفية والصياغة الحسنة القائم على الأنفع والأجدى، له حضور في الدراسات الحديثة، والتي تسعى بعض لسانيات النص إلى الكشف عنه ببيانِ سبب الاختيار بهذا التعبير عن غيره ، ولماذا هذه الطريقة بدلاً عن غيرها من الطرق؟

ومن جهود ديكرو، في هذا المجال، قانون النَّفع والجدوى، حيثُ ذكر بأنَّه بتطبيقِ هذا القانون، نفهمُ ما يُقال لنا، بحسب الذي يُقال، وهو قانونٌ يترجمه مُتَأولُ الملفوظ إلى سؤال من قبيل: لماذا قال المتكلم ما قال؟ ويستعين للجواب على هذا السؤال بالمقام أو الوضعية ؛ انطلاقاً من مستوى المكون اللساني.١٧

كما أن البحث في كيفية اشتغال مبدأ الأنفع بلاغيا من شأنه أن يدفعنا إلى البحث في الغاية من تطبيق المتكلم له لمبدأ في كلامه، وهذه هي الغاية دائما تبليغ المعنى١٨

وعلى ضوء ما سبق سيقوم الباحث بالكشف عن الحركة الحجاجية للكلمة النبوية، وذلك بالنظر في أسباب اختيارها دون مرادفاتها في سياق الترغيب وفق قانون المناسبة القائم على مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

ومن الأمثلة التي يمكن من خلالها تجسيد حركة الكلمة الحجاجية في سياق الترغيب ما يلي:

حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لاَ يَقْطَعُهَا".١٩

يكافئ الله عباده في الجنة بنعم كثيرة يسبغها عليهم، ومن هذه النعم التي أكرم الله بها عباده في الجنة، أن فيها شجرة عظيمة، من عظمتها يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، وقد اختار النبي (ص) من الألفاظ ما يتناسب مع هذا المعنى.

ومن هذه الألفاظ قوله (ص): "يَسِيرُ" ولم يقل يمشي، وذلك لما بينهما من فروق معنوية دقيقة، فالمشي هو الانتقال من مكان إلى مكان بإرادة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾٢٠، كما أن المشي يدل على الكثرة والنماء والزيادة، ومنه النتاج الكثير وبه سميت الماشية وامرأة ماشية كثر ولدها، وأمشى الرجل كثرت ماشيته٢١، بخلاف السير فيكون ليلاً و نهاراً ، ومنه السيرة أي: الطريقة ، وسار القوم، إذا امتد بهم السير في جهة توجهوا لها٢٢، ومنه سار الكلام والمثل في الناس، أي: شاع، ويقال: هذا مثل سائر٢٣.

فكلمة يسير لها أبعاد حجاجية من خلال مقتضاها المعجمي تدعو المتلقي إلى الترغيب في الجنة، فهي تدل على التتابع المستمر الذي يوحي بالإغراق الموغل في المسافة والبعد، مما يدل على مساحة الجنة الشاسعة، فإذا كانت هناك شجرة عظيمة لا يقطعها الراكب مسيرة شهر فما بالك بمساحة الجنة ؟

كما أن امتداد حرف الياء في لفظة يسير أعطى معنى الاستمرار والتتابع الدائم، وقد تضافر الصوت مع المعنى في هذه اللفظة، لتؤكد صورة هذه الشجرة العظيمة في هذا الحديث الشريف والتي مثلها لنا النبي (ص) وشخصها لنا بهذا الاسلوب البلاغي المتناهي في التصوير.

حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قُبَّةٍ، فَقَالَ: (أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ قُلْنَا: نَعَمْ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، وَمَا أَنْتُمْ فِي أَهْلِ الشِّرْكِ إِلَّا كَالشَّعَرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ، أَوْ كَالشَّعَرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَحْمَرِ).٢٤

في هذا الحديث الشريف يبشر النبي (ص) أمته بأنهم أكثر أهل الجنة، ولتأكيد هذه البشارة اختار النبي (ص) الألفاظ التي ترغب في الجنة.

ومن الألفاظ التي تُبرز دقة اختيار النبي (ص) لألفاظه في سياق هذا الحديث، هو استعماله لكلمة "شطر" وكلمة "نصف" في سياق واحد، الأمر الذي يؤكد على عدم تساويهما في المعنى، وهوما لا يفطن إليه الكثير منا، وذلك من خلال استعمالنا اليومي لهاتين الكلمتين.

فالشطر متداول في الاستعمال بمعنى النصف، وهو مضمن في المعاجم بهذا المعنى، قال الليث: "وشطر كل شيء نصفه"٢٥، ولكن يُلاحظ أن النبي (ص) استعمل لفظ "نصف" في قوله: "إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ" وهذا مما يؤكد أن هناك فرقاً دقيقاً بين اللفظين، فالنبي (ص) بدأ بالأدنى وهو الربع ثم قال الثلث ثم ذكر الشطر ثم ختم بالنصف.

وبهذا يتبين لنا أن الشطر وإن كان بمعنى النصف إلا أنه لا يعادله، فالشطر أحد شقي الشيء، ولكنه غير مساوٍ لأخيه، ومنه حديث النبي (ص) «فِي كُلِّ سَائِمَةِ إِبِلٍ فِي أَرْبَعِينَ بِنْتُ لَبُونٍ، وَلَا يُفَرَّقُ إِبِلٌ عَنْ حِسَابِهَا مَنْ أَعْطَاهَا مُؤْتَجِرًا - قَالَ ابْنُ الْعَلَاءِ مُؤْتَجِرًا بِهَا - فَلَهُ أَجْرُهَا، وَمَنْ مَنَعَهَا فَإِنَّا آخِذُوهَا وَشَطْرَ مَالِه، عَزْمَةً مِنْ عَزَمَاتِ رَبِّنَا عَزَّ وَجَلَّ، لَيْسَ لِآلِ مُحَمَّدٍ مِنْهَا شَيْءٌ»٢٦

أي: يجعل ماله شطرين فيتخير المصدق فيأخذ الصدقة من خير الشطرين؛ عقوبة لمنعه الزكاة٢٧، ومنه: شاة شطور، أي أن أحد ضرعيها أكبر من الآخر٢٨، بخلاف النصف فإن أحد شقي الشيء مساوٍ لأخيه، ومنه: نصف الماء الشجرة، بلغ نصفها، وكل شيء مثله، قال الشاعر:

إلى مَلِكٍ لا تَنْصُفُ السّاقَ نَعْلَه
أَجَلْ لا وإنْ كانت طوالاً محامله

ومنه قولهم: انتصفت منه، أي أخذت حقي كاملاً منه حتى صرت وإياه على النصف سواء٢٩، ومن هنا يظهر لنا ما تحمله أصول اللغة بين مفرداتها ذات الأصل الواحد من وشائج وصلات متقاربة ، فالمعنى الأول: نصف الشيء، والآخر: الإنصاف في المعاملة وكأنه الرضا بالنصف٣٠.

فالنبي (ص) رغب أن تكون أمته شطر أهل الجنة فأعطاه الله تعالى ذلك فأخبر أمته به، ثم زاده على الشطر وأعلمه به، فأخبر أمته ثانياً.٣١

والغاية الحجاجية في اختيار النبي (ص) لكلمتي "شطر" و"نصف" في سياق هذا الحديث، تكمن في تمثيل المعنى المراد، وهو تحقيق بشارة النبي (ص) لأمته بالتدرج من الأدنى إلى الأعلى، وهو دليل عناية ورعاية بهم، الأمر الذي يدعوهم إلى التشويق إلى الجنة.

حديث عَائِشَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّهُ لَا يُدْخِلُ أَحَدًا الْجَنَّةَ عَمَلُهُ قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِمَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ)٣٢.

الإسلام دين يدعو إلى الوسط والوسطية ويأمر بهما، ويحث على منهج الاعتدال حتى لا يقع العبد في الملل والسآمة فيفرِّط في العمل، أو يبالغ ويتجاوز الحد المفرط الذي يصل به إلى حد الغلو، والنصوص الشرعية من القرآن الكريم والحديث الشريف تؤكد على هذا المنهج وتحث عليه، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾٣٣

وفي هذا الحديث الشريف يبين لنا النبي (ص) فيه القصد في العمل فلا إفراط ولا تفريط، فلا أحد يدخل الجنة بمجرد عمله وإنما تفضلاً وإحساناً من الله فهو الذي وفق العبد للعمل الصالح وأعانه على فعله، وامتن عليه بالقبول وتفضل عليه بالمثوبة، ولتأكيد هذا الامتنان استخدم النبي (ص) من الألفاظ ما يتلاءم مع هذا الامتنان.

وأول لطائف مناسبة اللفظ مع المعنى قوله (ص): " سَدِّدُوا " وللعلماء في معناه

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

وجهان:

أحدهما: التسديد: وهو إصابة الغرض المقصود، وأصله من تسديد السهم إذا أصاب الغرض المرمى إليه ولم يخطه.

والثاني: أراد التسديد: أي العمل بالسداد – وهو القصد والتوسط في العبادة – فلا يقصر فيما أمر به ولا يتحمل منها مالا يطيقه.٣٤

ومن خلال تتبعي للدلالة اللغوية للفظ السداد تبين لي أن القول الثاني أرجح من القول الأول، فالنبي (ص) قال: "سددوا" ولم يقل صوبوا، وذلك للفرق الدقيق بين المعنيين فالسداد يدل على ردم شيء وملاءمته، ومن ذلك سددت الثلمة سداً، ومنه سداد الثلمة والثغر والعوز، قال الشاعر:

أَضَاعُونِي وَأَيَّ فَتًى أَضَاعُوا
لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ وَسِدَادِ ثَغْرٍ٣٥

والسُّدُّ من السحاب: هو الذي يسد الأفق٣٦، بخلاف الصواب الذي يدل على نزول شيء واستقراره قراره، ومن ذلك الصواب في القول والفعل، ومنه الصوب وهو نزول المطر٣٧، فيستعمل السداد للإصلاح كسد خرق، أو إكمال نقص، ويستعمل الصواب للأمر المستقيم المستقر وهو خلاف الخطأ.

وكلمة "سددوا" لها بعد حجاجي دعا النبي (ص) لاختيارها، من خلال ما تتضمنه من المقتضى المعجمي الكامن فيها، والذي يدل على امتنان الله على عباده ورحمته بهم، إذ أن السداد لا يكون إلا من نقص وقصور يعتري طاعة العبد، فلذلك أمرهم بالسداد ولم يطلب الصواب منهم، وهذا يقتضي شكر الله سبحانه وتعالى على رحمته بنا.

ومن الألفاظ التي تبرز دقة اختيار النبي (ص) لألفاظه قوله (ص): " يَتَغَمَّدَنِي"، أي يلبسني و يتغشاني ويسترني بها٣٨، وهذه المترادفات جامعها الستر والتغطية، ولكن النبي (ص) اختار كلمة "يتغمدني" لما يحمله من دلالة معنوية لا تكون في مرادفاته وهي الشمول والإحاطة تماماً ومن جميع الجهات مأخوذة من غمد السيف وهو غلافه، يقال: غمدت السيف وأغمدته٣٩، والسيف إذا أُدخل في غمده فلا ترى منه شيئاً.

بخلاف اللباس الذي لا يكون شاملاً لجميع أجزاء الجسد، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦ ﴾ قال الراغب: "وجعل اللّباس لكلّ ما يغطّي من الإنسان عن قبيح"٤٠.

وكلمة "يَتَغَمَّدَنِي" محملة بأبعاد حجاجية، فهي تدعو إلى الاعتراف بفضل الله على نبيه محمد (ص)، ومنها الإشعار بعبوديته (ص) ومساواته مع أصحابه، إذ أن دخوله الجنة برحمة الله، وليس بعمله عليه الصلاة والسلام، وهذا يقتضي تصديقه والعمل بما جاء به.

حديث ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الإِبِلِ الْمُعَقَّلَةِ، إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا، وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ"٤١

في هذا الحديث الشريف يرغب النبي (ص) في المداومة على تلاوة القرآن الكريم ويحض على المواظبة على قراءته ومراجعته لمن مَنَّ الله عليه بحفظه، فشبه الرسول (ص) صاحب القران بصاحب الإبل، فهو إما أن يعتنِ بها ويهتم لها، ويشرف على رعيها وسقيها، فحينئذ تألفه ولا تبتعد عنه.

وإما أن يهملها ولا يهتم لرعيها ولا لسقيها، وبهذه الحال تنشد المرعى وتبحث عن الماء بعيدا عن صاحبها، الذي أهملها و لم يعتنِ بها حتى تفلتت من بين يديه.

وصاحب القرآن متى ما كان مواظباً على مراجعة القرآن آلفاً لحروفه من كثرة التلاوة والمراجعة بقي القرآن في ذهنه ولم يبرح صدره ومتى ما ترك المواظبة عن مراجعته وملازمة تلاوته، انفلتت آياته من ذهنه وخرجت من ذاكرته.

وأول لطيفة في هذا الحديث لتناسب اللفظ مع المعنى، يظهر فيها دقة اختيار النبي (ص) للألفاظ:

قوله (ص): "صاحب"، حيث إن الصاحب هو الملازم إما لإنسان وأما لحيوان وأما لمكان وأما لزمان، ولا فرق بين أن تكون مصاحبته بالبدن وهو الأصل والأكثر وإما بالعناية والهمة، ولا يقال في العرف إلا لمن كثرت ملازمته، والإصحاب للشيء الانقياد له وأصله أن يصير صاحباً له٤٢. وكل شيء لازم شيئاً فقد استصحبه ، قال الشاعر:

إن لك الفضل على صحبتي
والمسك قد يستصحب الرَّامكا٤٣

فكلمة "صاحب" جاءت متناسبة مع سياق معنى الحديث وعبرت عن دلالته، وهذا ما تفتقر إليه مرادفتها كلمة صديق الذي صدقك النصيحة والمودة، وأصدقك في حديثه٤٤، ولكنه لم يلازمك ذهاباً وإياباً.

وتتمثل الغاية الحجاجية في كلمة

صاحب والتي دعت النبي (ص)إلى اختيارها، هو مقتضاها المعجمي المتمثل في الملازمة، فصاحب القرآن أي الذي ألفه، والمصاحبة المؤالفة، ومنه: فلان صاحب فلان٤٥، فهو ملازم لتلاوته وحفظه في كل وقت آناء الليل وأطراف النهار، وهذا هو حال صاحب الإبل الذي يلازمها في كل شعب وفي كل وادٍ فهو يصحبها منذ الصباح حين تقوم من مراحها وحتى يأتي بها في المساء.

ومن التناسب في سياق هذا الحديث كلمة الإبل والمشابهة المتمثلة بينها وبين القرآن الكريم ولماذا خصها الرسول (ص) دون غيرها من الخيل والبغال والحمير؟ وما ذاك إلا لتناسب جامع بينهما :

"من ذلك: أن الإبل تنقاد مع الضعيف والقوي والصغير والكبير والذكر والأنثى مع شدة قوتها وعظم خلقها، والقرآن مع علو قدره وجلال أمره وعجز الخلق عن الإتيان بمثله ميسر منقاد للضعيف والقوي، والصغير والكبير والذكر والأنثى.

ومن ذلك: أن الإبل تحمل الثِّقل، والقرآن يحمل أثقال المذنبين، فبكل حرف منه عشر حسنات كل حسنة تكفر سيئة.

ومن ذلك: أن الإبل هي المعدة لحمل آمين البيت الحرام الزائرين الله تعالى ورسوله وحمل أثقالهم. قال تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ ٤٦ والقرآن العظيم بقراءة العبد له يناجي ربه عز وجل.

ومن ذلك: أنها أعون شيء في إيصال العبد إلى بيت ربه عز وجل والقرآن بتلاوته يحصل للعبد القرب والمناجاة للرب جل وعلا"٤٧.

وتتمثل الغاية الحجاجية في اختيار صاحب الإبل، لما يتصف به من عزيمة وصبر وجلد على رعايتها والحفاظ عليها من الانفلات والضياع في متاهات الصحراء، وهو ما ينبغي أن يكون عليه صاحب القرآن إذا أراد عدم نسيان ما حفظه من القرآن.

حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ لاَ تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا وَلَوْ فِرْسِنَ شَاةٍ"٤٨.

الهدية رافد من روافد الحب والمودة، بها تدفن الضغائن، وتوأد الأحقاد، وتزال عثرة القطيعة، وتجلب كل أمر محمود، وتورث الصلة بين النفوس والأرواح، والنبي (ص) يرشد النساء المسلمات في هذا الحديث إلى التهادي بين بيوت المسلمين، وذلك مما يحقق التكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع المسلم، فيجمعهم على صفاء القلب ونقاء السريرة كي يشع الخير والألفة بين تلك البيوت، لأن أساس صلاح كل مجتمع هي الأسرة، " في هذا الحديث الحض على مهاداة الجار وصلته، وإنما أشار النبي عليه السلام بفرسن الشاة إلى القليل من الهدية، لا إلى إعطاء الفرسن، لأنه لا فائدة فيه "٤٩.

ومن لطائف التناسب بين اللفظ مع المعنى في هذا الحديث والتي يظهر من خلالها دقة اختيار النبي (ص) لألفاظه، قوله: "فِرْسِنَ": وهي عظم قليل اللحم، وهو خف البعير، وقد يستعار للشاة فيقال فرسن شاة، والذي للشاة هو الظلف، ولما كان المقام يدعو إلى المحبة والألفة والمودة، اختار النبي (ص) كلمة فرسن بدلا عن كلمة ظلف، وذلك لأن كلمة فرسن يتناسب مع مقام الهبة، بخلاف كلمة ظلف والتي تنفر منها النفس، ولذلك استعملها النبي (ص) في مقام الترهيب، في الحديث الذي رواه جابر بن عبدالله (أن النبي (ص) قال: «مَا مِنْ صَاحِبِ إِبِلٍ، وَلَا بَقَرٍ، وَلَا غَنَمٍ، لَا يُؤَدِّي حَقَّهَا، إِلَّا أُقْعِدَ لَهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِقَاعٍ قَرْقَرٍ تَطَؤُهُ ذَاتُ الظِّلْفِ بِظِلْفِهَا، وَتَنْطَحُهُ ذَاتُ الْقَرْنِ بِقَرْنِهَا، لَيْسَ فِيهَا يَوْمَئِذٍ جَمَّاءُ وَلَا مَكْسُورَةُ الْقَرْنِ»

وتتمثل الغاية الحجاجية لكلمة فرسن والتي دعت النبي (ص) لاختيارها هو ما تشيعه هذه اللفظ من الرقة واللطف والأنس، والتي بدورها تذكر المتلقي بالعمل على تحقيق أواصر التكافل الاجتماعي ونشر المحبة والوئام بين أفراد المجتمع المسلم.

حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: قَالَ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ: أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ وَقَالَ: يَدُ اللَّه مَلأَى، لاَ تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَبِيَدِهِ الْمِيزَانُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ.٥٠

أوحى الله سبحانه وتعالى لرسوله الكريم (ص) في هذا الحديث القدسي ببيان فضل النفقة، والحث عليها، وأنها من القربات التي ينال صاحبها الخير العظيم والإحسان، فالله سبحانه وتعالى يجزل العطاء لمن ينفق ابتغاء مرضاته، فعطاؤه عز وجل بحر زاخر لا ينفد ولا ينقص من خزائنه شيء، فهو منذ بدء خلق السماوات والأرض ينفق ولم ينقص

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

من ملكه شيء.

وقد وردت في هذا الحديث القدسي ألفاظٌ لاءمت سياق الحديث عن قدرة الله تبارك وتعالى وكثرة عطائه، ومن هذه الألفاظ قوله: "لاَ تَغِيضُهَا" التي بمعنى لا تنقصها.

وكلمة لا تغيضها لها أبعاد حجاجية دعت النبي (ص) لاختيارها في الحديث عن القدرة الإلهية، ذلك بأن الغيض يكون من سعة، وقد جاء في المثل قولهم: هذا غيض من فيض، فلذلك هي أدل على وفرة عطاء الله، وعظيم قدرته.

أما كلمة لا تنقصها، فيدل مقتضاها المعجمي على القلة، ذلك بأن النقص لا يكون من سعة حيث تظهر علاماته وتبتدر مبكرا على الشيء القليل، فهي وإن كانت منفية لا تتناسب مع مقام الحديث عن القدرة الإلهية، ولهذا لم يختارها النبي (ص) في هذا المقام.

حديث أَسْمَاءَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: أَنْفِقِي وَلاَ تُحْصِي فَيُحْصِيَ اللهُ عَلَيْكِ، وَلاَ تُوعِي فَيُوعِيَ اللهُ عَلَيْكِ.٥١

إن كمال الإيمان لا يتحقق في قلب العبد إلا إذا أيقن بأن الله متكفل برزقه من الطعام والشراب واللباس وكل ما قدره الله له من أمور معيشته قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾٥٢.

وفي هذا الحديث يحث النبي (ص) أسماء رضي الله عنها بالنفقة وينهاها عن الإمساك والبخل وعن ادخار المال في الوعاء٥٣، بألفاظ ناسبت هذا المعنى وحققت مقاصده.

فقوله (ص): "وَلاَ تُحْصِي" بمعنى لا تعدي، إلا أن الإحصاء الإفراط في التقصي والاستئثار٥٤، والإحصاء معرفة قدر الشيء وزناً وعدداً٥٥، ومن أسماء الله تعالى المحصي الذي أحصى كل شيء بعلمه وأحاط به فلا يفوته دقيق منها ولا جليل٥٦، والنهي عن الإحصاء لأنه إنما يُحصى لأجل التبقية والذخر٥٧.

بخلاف العد الذي يكون فيه تجاوز في العدد لبعض المعدود أو تساهلاً بتخريصه، ومنه: العِدَّة مصدر كالعد والعِدَّة أيضاً الجماعة قلت أو كثرت، تقول: رأيت عدة رجال وعدة نساء، ولهذا لم يختار النبي (ص) كلمة "لا تعدي".

والغاية الحجاجية التي دعت النبي (ص) أن يختار كلمة لا تحصي، هو مقتضاها المعجمي، فالإحصاء فعل لا يليق بذوي الكرم والمروءات في مقام النفقة والبذل والعطاء، فلا يحسن بالعبد الإحصاء فيه.

وختاما .. وفي ضوء دراستي لموضوع الحركة الحجاجية للكلمة النبوية (أحاديث الترغيب أنموذجا) توصلت إلى نتائج أجملها فيما يلي:

أولا: أن النبي (ص) استعمل في سياق الترغيب الكلمات الرقيقة المأنوسة الواضحة المعنى.

ثانيا: أظهر هذا البحث العلاقة الوطيدة بين اللفظ النبوي ومعناه، الأمر الذي يؤكد على دقة اختيار النبي (ص) لألفاظه، ويتجلى ذلك فيما لو استبدلت اللفظة النبوية بغيرها ممن هي في جدولها المعجمي، فإنه يختل المعنى المراد، وهذا يدعونا في إعادة النظر في قضية الترادف في اللغة.

ثالثا": أن المقتضى المعجمي للكلمة النبوية كانت له وظيفة في تمثيل المعنى المراد، الأمر الذي جعل له دورا بارزا في عملية الاختيار.

الهوامش:

١ - الحجاج في القرآن، د. عبد الله صولة، دار الفارابي، بيروت، ط٢، ٢٠٠٧م، ص :١٦٩

٢ - نفسه، ص : ١٦٩

٣ - الطراز ،يحيى بن حمزة العلويّ ، المكتبة العنصرية ، بيروت ،ط١ ، ١٤٢٣ ه، ٣/ ٨٠

٤ - المنوال البلاغي من البناء القائم الى البناء الممكن، بسمة شكيلي، منشورات كلية الآداب والفنون والانسانيات بمنوبة، تونس، ط١، ٢٠١٤م، ص: ١٤٢.

٥ - الحجاج في القرآن ، ص : ٩٠

٦ - ينظر: الأسلوبية والاسلوب، عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، ط٣، ص: ١٣٨-١٣٩.

٧ - الحجاج في القرآن، ص١٦٩.

٨ - تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الإصبع، تحقيق: د.حفني محمد شرف، الجمهورية العربية المتحدة ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، لجنة إحياء التراث الإسلامي، ١/ ٤٩٩.

٩ - المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر ، بيروت، ١٤٢٠ ه ، ١/ ٥٠

١٠ - النص وظله (الشاعر وقرينه في خطاب المتنبي الشعري)، د. حميد سمير، مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر/ نادي نجران الأدبي، ط١، ٢٠١٣م، ص: ٦٨.

١١ - جدلية الإفراد والتركيب (في النقد العربي القديم)، د. محمد عبد المطلب، الشركة المصرية العالمية للنشر، مصر، ط١، ١٩٩٥م ، ص: ١٤٣.

١٢ - البلاغة العربية في مسالك الدرس وتصاريف الخطاب، د. حمادي صمود، المنشورات الجامعية بمنوبة، تونس، ط١، ٢٠١٥م، ص: ٢٤.

١٣ - استراتيجيات الخطاب (مقاربة تداولية) ، عبدالهادي بن ظافر الشهري ، دار الكتاب الجديدة المتحدة ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٤م ، ص: ٦٤.

١٤ - الأسلوب (دراسة لغوية إحصائية) ، د. سعد مصلوح ، عالم الكتب ، ط٣ ، ١٤٢٣ه - ٢٠٠٢م، ص: ٣٧.

١٥ - دلائل الإعجاز في علم المعاني ، عبدالقاهر الجرجاني ، تحقيق : محمود أبو فهر ،مطبعة المدني ، بالقاهرة ، ط٣ ، ١٤١٣ه - ١٩٩٢م. ، ص٤١.

١٦ - جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام(، ابن القيم الجوزية، تحقيق : زائد بن أحمد النشيري، دار عالم الفوائد ، ص: ١٤٩.

١٧ - في نظرية الحجاج (دراسات وتطبيقات)، أ.د. عبد الله صولة، مسكلياني للنشر والتوزيع، تونس، ط١، ٢٠١١م، ص: ٧٨.

١٨ - الحجاج في القرآن، عبدالله صوله،ص١٠٠.

١٩ – كتاب اللؤلؤ والمرجان: باب إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، حديث رقم: ١٧٩٩

٢٠ – المفردات في غريب القرآن ، الأصفهاني ، تحقيق : صفوان عدنان الداودي ، دار القلم ، الدار الشامية ، دمشق ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٢ه ، ص: ٧٦٩، والآية من سورة الفرقان رقم: ٦٣.

٢١ – مقاييس اللغة ، لابن فارس ، تحقيق : عبدالسلام محمد هارون ،دار الفكر ، ١٣٩٩ه - ١٩٧٩م ، عدد الاجزاء ٦ : ٥/ ٣٢٥.

٢٢ – نفسه : ٣٠/ ١٢٠

٢٣ – لسان العرب ، لابن منظور ، دار صادر ، بيروت ، ط٣ ، ١٤١٤ه - عدد الأجزاء ١٥، ٤/ ٣٨٩

٢٤- كتاب اللؤلؤ والمرجان: باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة ، حديث رقم: ١٣٢

٢٥ – العين للفراهيدي، تحقيق : د. مهدي المخزومي و د.ابراهيم السامرائي، دار مكتبة الهلال، عدد الأجزاء ٨، ٦/ ٢٣٣.

٢٦ – سنن أبي داود، كتاب الزكاة، باب في زكاة السائمة، حديث رقم: ١٥٧٥، حديث رقم: (١٥٧٥)، حكم الألباني: حسن.

٢٧ – لسان العرب:١/ ٤٠٦.

٢٨ – المفردات : ص: ٤٥٤

٢٩ – العين : ٧/ ١٣٢١٣٣، البيت لابن ميادة، وروي في اللسان: ترى سيفه لا ينصف السّاق نعله.

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

٣٠– مقاييس اللغة : ٤٣١/١.

٣١ –المجالس الوعظية في شرح أحاديث خير البرية صلى الله عليه وسلم من صحيح الإمام البخاري، للسفيري، تحقيق: أحمد فتحي عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٥ ه – ٢٠٠٤ م: ١٤٥/٣.

٣٢– كتاب اللؤلؤ والمرجان: باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله ، ٢٨٤/٣ ، حديث رقم: ١٧٩٤ ، وصحيح البخاري: كتاب الرقاق ، باب القصد والمداومة على العمل ، حديث رقم: ٦٤٦٧ ، وصحيح مسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله ، حديث رقم: ٧٨(٢٨١٨) .

٣٣– سورة البقرة ، آية : ١٤٣

٣٤ – ينظر: فتح الباري لابن حجر: ١٥١/١.

٣٥ – مقاييس اللغة : ٣/ ٦٦.

٣٦ – العين: ١٨٤/٧.

٣٧ – مقاييس اللغة : ٣١٧/٣.

٣٨ – الفائق في غريب الحديث والأثر، الزمخشري، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، لبنان، ط٢: ٧٦/٣

٣٩ – النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩ه – ١٩٧٩م، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى و محمود محمد الطناحي : ٣٨٣/٣.

٤٠ – المفردات في غريب القرآن: ٧٣٤، والآية من سورة الأعراف رقم (٢٦).

٤١– كتاب اللؤلؤ والمرجان: باب الأمر بتعهد القرآن وكراهة قول نسيت آية ، حديث رقم: ٤٥٢.

٤٢ – المفردات: ٤٧٥/١.

٤٣– الرامك نوع من الطيب ردئ خسيس ، ينظر : تهذيب اللغة: ١٥٤/٤، والصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: ١٦١/١، ومقاييس اللغة: ٣٣٥/٣، ولسان العرب: ٥١٩/١.

٤٤– العين: ٢١٤/١، ولسان العرب:١٩٤/١٠

٤٥ – المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للنووي، دار إحياء التراث العربي ، بيروت،ط٢، ١٣٩٢: ٧٧/٦.

٤٦ – آية رقم ٧ من سورة النحل.

٤٧– ينظر: كتاب أقيسة النبي المصطفى محمد (،ناصح الدين الأنصاري، تحقيق: أحمد جابر وعلي الخطيب، مطبعة السعادة، ط١، ١٣٩٣ه – ١٩٧٣م : ١٦٨/ ١٦٩.

٤٨ – كتاب اللؤلؤ والمرجان: باب الحث على الصدقة ولو بالقليل ولا تمتنع من القليل لاحتقاره ، ٢١٥ ، حديث رقم: ٦٠٩ .

٤٩ – شرح صحيح البخارى، لابن بطال، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد ، السعودية، ط٢، ١٤٢٣ه – ٢٠٠٣م : ٢٢٢/٩.

٥٠ – كتاب اللؤلؤ والمرجان: باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف، حديث رقم: ٨٥٠

٥١ – كتاب اللؤلؤ والمرجان: باب الحث على الإنفاق وكراهة الإحصاء، حديث رقم: ٦٠٨ ،

٥٢ – سورة الذاريات آية رقم: ٢٢.

٥٣– شرح النووي على المسلم ، أبو زكريا للشرق النووي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط٢ ، ١٣٩٢م ، عدد الاجزاء ١٨ في ٩ مجلدات : ١١٨/٧

٥٤ – الكتاب: كشف المشكل من حديث الصحيحين، ابن الجوزي، تحقيق: علي حسين البواب، دار الوطن ،الرياض: ٤٥١/٤

٥٥ – فتح الباريً : ٣٠٠/٣

٥٦ – النهاية في غريب الحديث: ٣٩٧/١

٥٧ – عمدة القاري شرح صحيح البخاري، للعيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، عدد الأجزاء ٢٥×١٢: ١٥٢/١٣.

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2